الصور في اللغة الموسيقية

« اننا في حاجة لاستعارة صور من عالم المرئيات لنستعين بها على التعبير عن الخفي » (ارسطو)

العلامات المعبرة التي سبق التنويه عنها هي علامات طبيعية اذ تنبعث من تلقاء نفسها عقب العواطف والادراك وتوجد خلافها تعرف بالصور تحدث هي أيضاً الالهام والملاحظات ولكن الهامها مثقف وملاحظاتها دقيقة معززة بالمقارنات فليست اذن بتقليد رأسي أو وقتي للطبيعة اذ يهيمن عليها فن تتحكم فيه غالباً الاهواء . وقد تكون أحياناً من نتائج التصور المحض ولا يرجع سبب وجودها إلا لاستعمال اصطلاحي

وبدراستها يهجر منطقة الفيزيولوجيا معظواهرها وناميسها لندقق النظر في قوة نفسانية يصعب اظهار طريقة عملها لتغير نتائجها الا وهي ارتباط الفكر . وسيعيننا في هذا المقام الكلام البليغ على فهم اللغة الموسيقية

اننا لا نعرف الشعور والفكرة الا بطريقتين : دراسة تعبيرهما الفيزيولوجي ومعرفة الوجدان ولكن التعبير الفيزيولوجي ما هو الا نتيجة الانفعال وليس بالانفعال نفسه . والوجدان عمل بسيط وحيد لا يستطاع تمثيله أو تقليده

اذن ما هي الفكرة والشعور باعتبارهما الذاتي ؟ اننا لا نستطيع ان نعبر عن حقيقتهما وكل بيان لهما نراه مناقضا للآخر لانها اشياء غير مادية

يأتي التصور لاغاثتنا في حالة عجزنا هذه بان يجعلنا نسند الى العواطف والفكر أشكال الاشياء المادية . وهذا الاسناد الالهامي يحدث في الكلام الاعتيادي عدة صيغ تضطرد في الازدياد والتكاثر لدرجة لانهاية لها في الكلام الفني (الموسيقى)

ربما استغرب القارىء أو استهجن الاوصاف الآتية التي يسندها علماء البسيكولوجيا الى الفكرة ولكن الغاية تبرر الواسطة وما هي الا وسائل يستعان بها

على فهم الفكر. فتراهم يعبرون الفكرة وزنا فيقولون فكرة ثقيلة وخفيفة ويعبرونها لونا فيقولون فكرة قاتمة وسوداء وصافية . ويعبرونها ابعاداً فيقولون فكرة عريضة وضيقة ومرتفعة وعميقة وسميكة .... ويعبرونها خاصية المتانة فيقولون فكرة متينة وينسبون اليها مذاقا فيقولون فكرة حلوة ومرة وتافهه . ويعبرون الشعور حرارة فيقولون قلب بارد وحار

وهذا الاتفاق الالهامي ذو التأثير العظيم في لغات الامم هو منبع الانشاء الشعري ولولاه لاقتصر الشعراء على تبيان أسباب العواطف ونتائجها وأحجموا عن تصوير العواطف نفسها

يستطيع (راسين) ان يظهر لنا نتائج حب (فيدر) وجميع الحوادث التي سببها ولكنه حينما يريد ان يكشف الغطاء ويزيل الخفاء عن شعورها يستعمل هذه الصيغة

« اشعل الله فى احشائي ناراً لاتبقي ولاتذر » (راجع سيرة فيدر في بلاغة الغرب)

وان تعدد الرموز المتناهي المستعملة في تمثيل الحب تكاد تضحكنا اذ تظهر عجز الكتاب عن تعيين شيء غير مادي مثل قول (تيبوفيل جوتييه) عن المراهقين بان (نفوسهم كلون اللبن) ولكن ذلك العجز ولو انه لا يضر بالعمل الفني فانه يوجد صعوبة ما يمكن للناظر ان يري فيها أصل الاسلوب الشعري وحالته . ومن هنا تظهر خصيصة الكلام الذي يخاطبنا به وفضله فى الابتداع وأهميته

وحينما يجد الشاعر نفسه غير قادر على اظهار النفس يضطر لان يبحث عن طرق غير رأسيه وتشبيهات ليكشف عنها الحجب فالصور هي سر الكلام وروحه .

فلنقارن بين شاعرين مثل (شكسبير) و (راسين) دون أن نرجع الى البراهين النظرية . فكلا الشاعرين يعرف قلب الانسان . ألم يك (شكسبير) أكثر شاعرية بالنسبة لغزارة الصيغ الطلية التي وجدها المتعبير عن عالم الخيال ؟ وان

نزعنا الصور من (هوميروس) و (بيندار) و (ايشيل) فماذا يبقى ؟ لايبقى إلا رواة وأخلاقيون لاشعراء

فالموسيقى يسير غالبا على النهج الذي يتبعه أهل الادب ولا يجري على أثره لينشيء استعارة ما وينمقها كما يقع ذلك لبعض المصورين الذين لا يجيدون . وانه ليخضع لنفس ميول التصور ونزعاته في عمل مستقل في نفسه ولو ان بينه وبين غيره صفات مشتركة به فهو أيضا يريد أن يعبر عن النفس لاعن ظواهرها الخارجية كالحفار والمصور والممثل بالاشارات والراقص بل عن النفس ذاتها . وحيثما لا يستطيع التعبير عن شيء خفي غير مادي ولا محسوس لاصوت له ولا لون يعمد الى معادلات اصطلاحية وتشبيهات ينشئها الالهام بين الاشياء الحقيقية والفكرة . وفي بعض الاحيان لايجد له مناصا من ذلك

مثال ذلك انه اذا أراد أن يعبر عن عواطف بدلا من أن تكون ظاهرة وممثلة بالصوت والاشارة فانها بالعكس لا نتيجة لها الا السكوت والسكون وتأملات الفكر فيجد الفتى نفسه مضطرا لان يعبر الطبيعة حركة وقت سكونها ولهجة عند بكمها . ووقتما تعوزه ملاحظات الكلام الطبيعي يركن الى تصوره ويفرض ان الحياة العقلية المبعدة فى أعماق النفس تجسمت فى أشكال محسوسة وينشيء من موضوع بسيكولوجي محض موضوعا وصفيا يشمل الصور والالوان . والرموز التي تنتج هي من أهم المناظر التى لم تبين تماما في اللغة الموسيقية

نريد الآن ان نأتي ببعض أمثلة للصور فى الشعر وأخرى فى الموسيقى لنعرف وجه تشابههما فى التصوير

نشاهد في رواية (فوست) ان عواطف الدكتور فوست وهو في غرفة عمله من هموم وأحزان وضعف عزيمة وشقاء نفس وآلام أدبية قدمثلت بصورة مستعارة من الالوان . اذ يقال عن شخص حل به السأم وزهد في الحياة « ساورته فكر مظلمة » كما قال (راسين) في رواية (بريتانيكوس) « حزن مظلم » وقال شكسبير) عن لسان (كلوديوس) عم (هملت) حينما رآه كئيبا فريسة لآلام أذهلته

« مالي أرى هـذه السحب ما فتئت تحيط بك ياهملت » . وهـذه الكلمة استعملها (بوسويه) في حديث فخم يخاطب به قبر (كونديه)

« هلموا سراعا يا عظماء الرجال واقبلي اليوم يا أنوار العالم وأنت متسربلة بآلامك كأنك مشتملة بالسحب »

وقد قارن (الفريد دوموسيه) في قصيدته (ليلة من تشرين الاول) ألماً خفيفاً بالضباب حيث قال : « أصبحت والحمد لله لا أتذكر مما تكبدته من الآلام فيما سلف من الايام . الا كطيف خيال أو ضباب خفيف هاجه الفجر ثم لاحت بعده تباشير الصباح ونفحات النسيم العليل بين الندى البليـل » ولكنه حينما يتملكه الشك وتتقاسمه الالام العنيفة يصيح قائلا : « انني أقعد وحيدا في ظلام فؤادي »

لنرجع الآن الى الموسـيقى فنتساءل ماذا يصنع الموسيقيون حينما يريدون ان يعبروا عن عواطف السأم وضعف العزيمة ؟

يستعملون الصور كالشعراء ويخصصون آلة (الكونترباس) أو (الفيولونسيل) للانغام الضخمة . ففي (قصاص فوست الاخروي) تأليف الموسيقي (بيرليوز) نسمع الجملة المشهورة : « فوست في غرفة عمله » باصوات مختنقة عميقة تعتبر كأنها صورة مماثلة للتعبير الشعري الذي ذكرناه في موضعه ولا فرق بينهما الا أن هذه الصورة الموسيقية أصبحت محققة بعد ان كانت خيالية في الشعر . فطريقة الموسيقى هي عين طريقة الشاعر فيخاطب هذا الاخير العقل ولكن الموسيقى يمس الاذان وصورة الشاعر ليست الا ادراكا وأما صورة الموسيقى فانها ادراك محقق فاحدهما يمنحنا فكرة الاحساس والآخر يعطينا الاحساس نفسه . فمبلغ القول اذن أن اللغة الموسيقية حقيقية ولغة أهل الادب خيالية

الموسيقى والحب

وضع (داروين) الحب قبل ظهور الانسان وقال انه معروف من القدم بين الكائنات الحية التي نشأ وارتقى منها الانسان . فتراه قد توخى الصدق والاخلاص وعدم التحيز والتبصر في التأكيد مما جعل كتابه منبع علم يستقي منه كل طالب

وكان هذا المؤرخ الطبيعي الانجليزي رقيق الشعور بالنسبة الى الفن يريد أن يحل هذه المعميات :

لم احرزت الموسيقى قوة عظيمة في التأثير تثير ما كمن من العواطف ؟ من أين أتت فضيلة هذه اللغة التي نشعر بتأثيرها الفتان دون أن نستطيع ادراك كنهها ؟

يعتمد (داروين) في الجواب على هذه الاسئلة على القضايا الثلاثة الآتية :

١— للموسيقى قوة في التعبير (وهذه الكلمة مستعملة في هذا الموضوع بمعناها العامي المتداول) محدودة : اذ لا تستطيع ان تعبر عن الخوف والبغض والذعر والغضب الحاد ولكنها بالعكس تجيد في التعبير عن الحب وفرح الانتصار والظفر

٢— يشاهد فى فصل الانتاج ان الحيوانات يسمع لها أصوات وغناء

٣— يوجد بين الحيوان والانسان انتقال وراثي

هذه القضايا الثلاثة من طبيعتها ان تنير علم الجمال . فلو سلمنا ان الحيوانات فى زمن النزوان تكون منقادة بعامل الحب والغيرة والتنافس والنصر وان السلف الغابر قبل تمدينه استعمل الاصوات والاوزان الموسيقية وان خاصية التأثير فى الموسيقى الذي ينفذ الى أعماق القلوب يكون مفهوما عند حد معلوم . فتكون الموسيقى بناء على مبدأ الارتباط الوراثي تجدد عندنا بطريقة مبهمة غير واضحة الانفعالات الشديدة التي كانت في العصور الخالية .

اذن كل ذلك يقرب من الحقيقة الغرض القائل بان مظاهر أصوات الحيوانات التي سبقنا لم تكن لغطا يبح الصوت بل كانت نوعاً من التخاطب مرتبطة بعواطف حب الغير وطريقة فنانة خلابة للشعور . اننا لا ننكر ان استعمال هذه الطريقة كان ولم يزل نتيجة مقبولة . ولكن فى الحقيقة اننا اذا لم نسلم بان الاناث لا تحفل بهذه الوسيلة ولا تنقاد للافتتان بالذكور لوجب علينا أن نعترف بان الاعضاء المتعددة التي يحرزها الذكر غالباً ليصغي اليه لا فائدة فيها مطلقاً وهذا شيء مستحيل

ان (داروين) يعترف بان الذكور لا تترك وسيلة لمظاهر الزينة الا استباحتها فلا تقتصر على نشر ريشها المفوف المزدان بابهى النقوش مثل الطير المسمى (بارادیزیه)

المعروف بطير الجنة والطاووس وغيره بل يمنحها الهام التناسل فنًا فتغني

يغرد العندليب بنغمات ملؤها الفن ليظفر بأليفته. ويعمد الطير المسمى (تيترا) (وهو نوع من الديوك البرية ضخم جداً يسكن غابات أوربا) الى أشارات أشبه (بالبانطوميم) مختلطة بغناء اذ يقف على غصن واطيء وينشر ريش عنقه الطويل ويخفض جناحيه وينكت الغصن برجليه ويردد عينيه بشكل مضحك ثم يصيح صياحا حادا أصم الصوت متقطعاً بطيئا فيزيد شيئا فشيئا فى القوة والتنويع والسرعة حتى تصبح أصواتا تنبو عنها الاسماع وموسيقية فى الوقت نفسه ثم ينتهي باقفال عينيه كشمل من الملذات

فالحيوان الذي يظفر باقرانه المتنافسين يصبح مؤسسا لخلف أرقى وأعظم لانه بانتصاره قد أعدم من الوجود افراداً دونه في المزايا والصفات وحيث ان هذا الخلف خاضع لنفس هذا القتال والانتقاء ثم يتحول بدوره شيئا فشيئا وبمرور الزمن تنتج أنواع جديدة بهذه الوسيلة

كم من معان متضمنة فى غناء الطير ! اذ جميع أمانيه ومستقبله طي أغانيه وصوته فان حرم من ورود حياض الهناءة والتمتع بأليفة يسكن اليها فذلك راجع الى حرمانه من موهبة حسن الصوت واتقان الغناء ! فالانسان أتى متمما لاعمال الحيوان الموسيقية وغيرها

الالحان المشجية الفتانة التي جادت بها قرائح عظماء الموسيقيين ليست الا اطالة في أحسن مظاهرها وتحقيقا لخيال عمل شخصي مرتبط باقوى العواطف وأرقها في الهيئة الاجتماعية . فيفنى الانسان وتحيى بعده عواطفه ممثلة على صفحات الاوراق وبهذه الصفة تفسر أسرار الموسيقى وعواملها المؤثرة . فهي أسرار لانها مجردة اليوم من وظيفتها الاصلية وانها تمس أشياء اختارتها الزخارف ولغة خصصت من منشئها من قديم الازل للحب . وانها تؤثر فى أعماق النفوس لانها تمس منا الالهام الحيوى الهام التكاثر والترقي وتجدد فينا دون أن نشعر وبطريقة مبهمة خفية ارتباط الفكر بوراثة طويلة لا تحددها الاجيال

اننا نستحسن من (داروين) فكرة اتحاد الحب والترقي وانهما أمر واحد . فالفردان اللذان يبحثان عن بعضهما لا يكتفيان بالتكاثر واستمرار الحياة بل يريدان أن يرقيا الى ذروة الاماني والآمال . اذن لو وجد الترقي في الحقيقة وانه سنة وناموس لوجب أن يرتبط بأصل الخليقة ومبدأ أولى يرتب تطورات الكائنات فنرجع اذن بالتعبير الموسيقي الى دور عظيم فخم !

ملاحظات على فكرة (داروين)

ان كان يزعم (داروين) انه أتانا بنظرية عامة تامة للموسيقى فاننا نعارضه بجملة اعتراضات اذ يستحق ان يؤاخذ بأنه افرط في تسهيل مسألة هي في الحقيقة عقدة العقد حتى عدها في غاية البساطة

اننا نرد عليه بان غناء الطير ليس في الحقيقة موسيقياً ودليله أن كتابة غنائه من أصعب الصعوبات . ولا ننكر انه اذا اجتمعت طيور مختلفة وغنت مع بعضها في آن واحد فان أصواتها لا تمجها الآذان . ولكن الاصوات الانسانية الصادرة في وقت واحد ولم ترتب باتفاق سابق تنبو عنها الآذان وتنفر منها . ويلزم الانسان اذا كان يريد أن يميز لحنا في مظاهر أصوات بعض الحيوانات أن يكون موسيقياً ماهراً

فلو سلمنا بالغرض الذي ينسب للغناء هذا التأثير فلم انحرف الانتقال الوراثي وغير خطة سيره حتى أصبحنا نرى ان النساء أكثر استعداداً للغناء من الرجال وهن اللاتي تحل أصواتهن محل الاعجاب لدى الرجال

ولكن (داروين) لشدة تبصره وحكمته نسي حقيقة طبائع الاشياء التي تكلم عنها اذ أراد أن يضم الموسيقى الى التاريخ الطبيعي فتكلم عنها باهمال واجمال في فقرة من بعض كتبه اذ أراد أن يفسر تأثير التخاطب بالاصوات فلذلك يظهر أن جميع أفكاره اتجهت الى البحث في الموسيقى من الوجهة الاجتماعية

اننا لا ننكر على الطير صناعة الغناء بعد ما ذكرها الشعراء القدماء . وقد قال الشاعر اللاتيني القديم (لوكريس) ان الانسان كان يقلد الطيور قبل أن يتعلم الكلام

ان لاهل (كامتشاتكا) (وهي شبه جزيرة فى سيبريا الشرقية على نهر بهرنج) لحنا يسمى (اناجيتش) ومصدر اسمه وأصله راجع الى اسم طير يسمى (أناس جلاسيالس) يظهر اسرابا اسرابا فى بلدهم فى زمن معلوم

وقد كتب الموسيقي الفرنسي أو البلجيكي (كليمان جانوكان) من القرن السادس عشر قطعة موسيقية وصفية سماها (صوت الطير) وقلد (هايدن) قوقأة الدجاج فى الرباعية العشرين من قطعه الموسيقية كما عمل مثله (موزار) و(روسيني) ولم يستنكف (بيتهوفن) ان يقلد صوت الطير المسمى (كوكو) فى قطعته المسماة (السانفوني الخلوية)

اننا أثبتنا أمراً أولياً اجتماعياً وهو التقليد المستعمل من نشأة الموسيقى فهل نستطيع أن نضيف الى ذلك ان هذا التقليد سببه وأساسه عاطفة لا تغلب ولا تقاوم الا وهي حب الغير ؟ نعم ولكنه بتغيير قليل ندخله في فكرة (داروين)

١ — لو كان الغناء وسيلة للظفر ويتسنى بها من هذه الوجهة ترقي الجنس لوجب ان توجد موافقة وتوازن بين ترقي الغناء وترتيب درجات الكائنات الحية فلم لا يكون القرد أمهر فى الموسيقى من العندليب ونشاهد أن مظاهر أصوات فصيلة البهائم ذات الاثداء ليست إلا لغطاً ينشأ من ظاهرتين بسيطتين وهما الشهيق والزفير فلا يكفي القرد ان يبعث صياحاً شديداً ليقال انه موسيقي

٢ — ولو كانت لغة للحب انتقلت بالوراثة والتطور وانشأت الموسيقى لوجب على الامم الاولى ان تعترف باستمرار الارتقاء وكنا نعلم ذلك من صفات فنهم . ووجب ان توجد بينهم موسيقى تمثلها العواطف والتعبير والرقة قريبة من الطبيعة وخاضعة مباشرة للوراثه ولكنها ليست كما نظن ونفرض

وقد روى المسيو (جروس) مشاهدة عيان رآها البرنس (دوفييد) اذ قال عن (البوتوكودو) وهي أمة من متوحشي أمريكا الجنوبية منتشرة فى غابات البرزيل

«ان غناء الرجال أشبه بصياح غير مميز يهتز بين صوتين أو ثلاثة ويكون آونة مرتفعاً وأخرى عميقاً ويتنفسون بقوة ويضعون ذراعهم اليسرى على رأسهم وأحياناً يضعون أصابعهم في آذانهم لاسيما اذا كان عندهم ناس ويفتحون فمهم الى آخره الذي شوهه (البوتوك) (وهي قطعة مستديرة من الخشب يركبونها فوق شفتهم السفلى بعد ثقبها وتعد عندهم من أعظم الحلى والزينة). ولا نظن أن شخصاً مايرى عند هذه الامة شيئاً يعجبه أو يفتنه من الفن!

ان المتوحشين لايعرفون غير التناسل وقد قال المسيو (لوبوك): «أن هنود أمريكا الشمالية الذين يتكلمون لغة (التينيه) لاتوجد في لغتهم كلمة تعبر عن لفظ (عزيز أو محبوب) كما انه لا توجد في لغة (الالجونكان) (وهم من هنود أمريكا وقاطنون على مقربة من بحيرة ميشيجان) كلمة تفيد (الحب)

نعم ان أغاني المتوحشين تدور عادة حول الصيد والحرب والنساء ولكن يندر جداً أن يسند اليهم غناء الحب

ولا يوجد عند (الاوزاج) (هنود أواسط الولايات المتحدة) حتى عند (الشيروكيس) (وهي أمة من هنود الولايات المتحدة مشهورة بالذكاء حتى أصبحت اليوم في غاية من المدنية) تعبير واحد موسيقي أو شعري مبني على عاطفة حنو بين الجنسين ولم تسمع منهم أغان للحب»

وكذلك لايوجد لحن واحد للحب عند المتوحشين من (الاوستراليين) و(المينكوبيس) (وهي أمة من السود منتشرة في جزيرة اندمان بأرخبيل بنغال)

وقال المسيو (رينك) ان أمة (الاسكيمو) (الذين يسكنون حول القطب الشمالي) يكاد لايعرفون عاطفة الحب

٣ — اذا كان منشأ الموسيقى صادراً من الالهام التناسلي فلم نرى ان من الوظائف الاولية التي لها السبق في الموسيقى عند جميع الامم تنحصر في الدينية منها؟ من أين أتت الاغاني الحربية وهي مضادة للحب؟ كيف يتأتى ان (الاوستراليين) وكثير غيرهم يغنون في معظم الاحيان حينما يكونون منفردين

وحيث ان الالهام التناسلي عام فلم نشاهد ان بعض الامم (كالالمان) أمهر في الموسيقى من أمم أخرى من عنصرهم وأقربائهم (كالانكليز) ؟

يعتبر الالمان ملوكا للموسيقى حيث انتجوا فحولها مثل (باخ وهندل وبيتهوفن وفيبر وموزار وشومان وغيرهم

يصعب علينا ان نقبل نظرية (داروين) كما هي على علاتها فان هـذا المؤرخ الطبيعي العظيم يريد ان يوجد سلسلة مستمرة تربط موسيقى الاناسي المتمدنين بمظاهر الغريزة التناسلية عند الحيوانات الدنيئة . ولـكن توجد كما رأينا عدة حلقات تنقص هذه السلسلة وتظهر باختيارنا ماسبق عن الامم المتوحشة . وبتغيير خفيف لايزيد عن تأخير حد يـكفي لان يصير هذا المذهب مقبولا

ومبلغ القول ان (داروين) لايبتعد كثيراً عن علماء ماوراء المادة الالمانيين الذين يسندون الى الموسيقى امتياز التعبير الاساسي عن أعماق نفوسنا . وماأساس كياننا غير الحياة والرغبة في اطالتها وتخليدها وابلاغها الى منتهي الـكمال والسعادة

تكلم المسيو (كلوديوس مادورول) في كتابه (سياحة في غينا) عن الزنوج وشدة شغفهم بالملذات والشهوات التي يؤسسون عليها موسيقاهم ورقصهم فقال : « لاتلبث الشمس ان تغيب عن العيون إلا وترى افريقية باجمعها قد تحولت الى أعياد تنطلق في ارجائها أصـوات الطبول » وهـذا أشبه بالحفـلات الموسيقية ذات الاوزان الغريبة التي تصدع الرؤوس وتنبعث في المساء عقب قيظ شديد من انغام مختلفة سائمة في الحقول . وهذه الموسيقى الفخمة الوحشية لها معنى عظيم اذ بالاصغاء اليها يفهم الانسان شيئا من روح الطبيعة

حينما يخيم الظلام ترى الناس غير قادرين على مغالبة رغبتهم في منح الحياة أبهى مظاهرها واعادتها في أشكال جديدة أعظم وأجل من سابقها . وما هـذه الرغبة الا الحب اذ منه ينبعث هذا الصوت الفخم الجهوري الرنان صوت الكائنات الحية التي تريد الرقي وتدعوه

موسيقانا أشبه بموسيقي الزنوج ولا مشاحة في أنها أعظم رقيا وتهذيبا ولـكنها

تعبر بصيغ واضحة جلية عن ملذاتنا المتأصلة في اعماق نفوسنا . انها تجمع وتظهر وترفع دعوة الجنسين لبعضهما فتراهم في ليالي الصيف منتشرين في الخلوات كنسيج من الفتن والملذات فيجد الحب بينهم مقاما ارفع منه في الشعر الخيالي

وعلى هذا النمط سار نوابغ الموسيقيين اذ كانوا مولعين بالحب ومعظم تأثرات وانفعالات السامعين كانت من أصداء عواطفهم الاخيرة

الموسيقى والسحر

السحر هو مجموع تمرينات يعتقد الانسان أنه بواسطتها يجعل الطبيعة والارواح التي تعمرها خاضعة لارادته. يعترف الدين والسحر بالارواح ولكن علاقة الانسان بالارواح ليست واحدة في الدين والسحر. ففي الدين يبتهل الانسان الى رب قادر ويسأله بخشوع وتوسل عنايته الربانية ورحمته التي وسعت كل شيء . ولكنها تختلف في السحر لان الساحر لا يضرع ولا يرجو بل يأمر وينهي. اذن فالاعمال الدينية تستقي نفوذها الفعال من العواطف والنيات وهما شعار الدين . وفي السحر يعمل الساحر حسب مقتضيات قوانين مخصوصة دون ان تكون لعواطفه ونياته تأثير في اعماله . وهذه القوانين لا يستطيع الانسان أن يقاومها أو يبطل مفعولها الا اذا كان ساحراً

وقد وصف الشاعر اليوناني القديم (أوريبيد) في احدى رواياته المحزنة الفن الذي يجعل الالهة تتكلم رغما عنها بواسطة عزائم معينة وهو عبارة عن السحر في الازمان التي وجدت فيها الآلهة الميتولوجية . وهذا الفن كان يقهر هذه الآلهة حينما يكون مضاداً لارادتهم الدينية

نرى ان كتاب النصرانية يميزون بين المعجزات الحقيقية التي تحدث بفضل الدين وبين مثيلاتها التي تنال بالتعزيم . ولو انهم يحترمون الاخيرة لكنهم يعتقدون بجواز حصولها

وللسحر مذهبان أحدهما يدوي يتركب من أشكال هندسية وصور واحراق أشياء مختلفة كالبخور وغيره والثاني شفهي

يستدعى المذهب اليدوي الصناعة فهو اذن متأخر عن الشفهي لان الصوت آلة جعلتها الطبيعة طوع الانسان ولا يستلزم استخدامها شيئاً سوى الغريزة وهذا مما يثبت ان المذهب الشفهي أقدم من اليدوي

ابتدأوا في السحر الشفهي بالغناء ومرت صيغه بوجوه التطورات الآتية : لحنوها ثم رووها ثم كتبوها وحملوها في بعض الاحوال كالتمائم

وقد اعتبر الصوت أشد تأثيرا ونفوذاً من أشربة العشق حتى في الزمن الذي انتشر وتقدم فيه السحر اليدوي . وقدعرف الناس واشتهر بينهم ان المذهب اليدوي كان دائماً في حاجة للاستعانة بالصيغ الشفهية

الغناء السحرى

يوصف الغناء السحرى عند القدماء بالمسائل الآتية :

١— نظامه الذاتي— فهو متقدم عن كل القوانين الموسيقية المنتظمة وخاضع لقوانين عامة هامة في مادة السحر الا وهي التقليد . والغناء السحري بعيد عن أن يطرق فن الجمال لانه لم يعمل للسماع بل هو موجه لفرد واحد غير مرئي يتأثر لاقل شيء من الاعمال السحرية . ويغني الساحر الروح وحده الذى يريد ان يهيمن عليه

لا نجد في الغناء السحرى ما نسميه بالنظريات الموسيقية ولكنه مزود بجميع ما يلزمه وينشىء كيانه من أصول فن السحر

٢— من وجهة ارتباطه باقوال تكون عادة غير مفهومة لدينا ولا يفهمها المغنون انفسهم

٣— عمله ودائرته التي نتناولها ابحاثه— وهو قديم في تاريخ المدنية الانسانية وله أهمية عظمى لانه كان امراً عاما يظهر في اغلب الاوقات فى أدوار الحياة العملية

٤— من الوجهة الاجتماعية — نرى للغناء السحرى ارتباطا معيناً بالحياة الاجتماعية عند القدماء والمثال الآتي يوضح لنا ذلك جلياً

ان قبائل (اوماها) (قوم من هنود الولايات المتحدة يسكنون مقاطعة نبراسكا وكانوا في الزمن الغابر مشهورين بالصيد ولكنهم أصبحوا في حالة طيبة من المدنية وتركوا عاداتهم وعقائدهم القديمة حتى صاروا الان من أعظم العاملين فى الزراعة يكثر فى بلادهم الجاموس وصيد هـذا الجنس خاضع لوقائع مختلفة ويمكث زمناً طويلا وهو مرتب باستعمالات محدودة والزامية لكل فرد . وكل مخالفة تصدر منهم تدخل تحت طائلة العقاب الشديد . تخرج القبيلة من قريتها بقيادة رئيس ينتخب فى حفلة عظيمة وهذا الرئيس في الوقت نفسه صياد ماهر وكاهن مغن وساحر عظيم يحمل كل تبعة اذ هو المنوط بادارة حركة الصيد واختيار أعظم الامكنة التي يعسكر فيها جنده والتنبؤ بمكان الصيد واحضار الطعام ويجيب عن كل ما سيحصل من تقلبات الايام وهجوم الاعداء والمشاجرات وغيرها

المطر وصفاء الجو

الغناء السحري عند المكسيكيين

تهطل في هذه البلاد الحارة ذات الشمس المحرقة الامطار الغزيرة لان جبالها (سيرا مادرا الغربية) تبلغ ٢٠٦٩ متراً فوق سطح الماء . والتبخر عندهم سريع كما أن الارض متخلخلة لاتحفظ الماء طويلا فلذلك تراهم مهددين بالجدب اذا أمسك عنهم الغيث في المدة المنحصرة بين شهري يونيه واكتوبر

غذاء هذه الامة مترتب على نجاح زراعتها فهم يفضلون ماء السماء على الذهب والفضة . يعتقدون ان المتصرف في المطر اله يكون تارة جواداً وطوراً بخيلا ولا وسيلة لهم لقهر هذا الاله إلا بالغناء السحري

انتشر في المكسيك في الجهات الممتدة بين حوض (لاكوستر) الذى توجد في وسطه (مكسيكو) وفي الوجهة الشرقية على مقربة من البحر والقبلية بالقرب من برزخ (تهويانتيبيك) المذهب القائل بوجود آلهة المطر المسماة (تلالوك) أي الهة الظواهر الجوية الذين يجودون بالغيث . ويوجد فى الحدود الشرقية قبيلة منهم تسمى (تونوالكاس) وهو اسم من أسماء آلهة المطر القدماء (تونوالكالت)

وقد عثر على صوره تمثل (تلالوك) وهو قابض على صولجان من الخشب به السحب وعلى صدره اناء يعتبر انه يحوي المطر وهو مصور باللون الاخضر وله أخت أو زوجة (تسمى الازار الزمردي)

الاستغاثة بآلهة الامطار بواسطة الغناء السحري متقدم على الضحايا الفاجعة التى كانت تقترف عدة مرات فى السنة اذ كانوا يذبحون عدداً عظيما من الاطفال في جهات مختلفة على قمم الجبال تشريفاً لاله المطر ليمنحنم وابلا مدراراً. كان الذين تدور عليهم الدائرة ويخونهم الحظ المنكود من هؤلاء الاطفال الابرياء يزينون بفاخر الثياب ويحملون على الاكتاف فى أسرة محلاة بأبهى الريش وأجمل الازهار يتقدمهم موكب عظيم جمع بين الغناء والرقص والعزف بالآلات الموسيقية

ولقبائل (الزونيس) رقص عظيم المطر يعتبرونه من أقدم عقائدهم وعاداتهم وهو متداول بين كافة طبقاتهم ومصحوب بغناء يحدث فى حفلة شائقة تقام بكل اعتناء لنوال الامطار . وهاك ترتيب القسم الموسيقي للحفلة

تضرم أولا النيران على الصخور وذري الآكام المجاورة ويستمر اشعالها الى أن تتقبل صلاتهم ودليل ذلك نزول وابل هتان . وللمطر كاهن يخاطبه بخشب خاص يحدث عند احراقه دخاناً كثيفاً يحلق فى السماء كالسحب

ثم يرتل العزائم والاغاني السحريه الفتيان الشجعان والعذارى اللاتي يلبين دعوة الكهان وينشدن بحمية وحماسة وهن لابسات حللا بيضاء حاملات ألواحاً نقشت عليها من جهة سحب مربدة ومن الاخرى صورة البرق

يستمر الرقص والغناء ليلا ونهاراً بصبر لايستطيع العقل تصوره والجميع مرتسم على وجوههم الوثوق بنجاح أعمالهم . وتتركب الحفلة الموسيقية من الاقسام الآتية

١ — طبول تؤذن برقص المطر
٢ — يأمر كاهن المطر الفتيات بافتتاح الرقص (غناء)
٣ — يدعو الجميع المطر (لحن)
٤ — اشارة بالسكوت
٥ — يضرب على صفائح رنانة تمثل صوت الرعد
٦ — غناء العذارى للاستغاثة باله المطر
٧ — نشيد الحمد والثناء عقب سقوط المطر

الاستسقاء عند الفراعنة

اشتهرت بلاد الفراعنة من غابر الازمان بخصبها وتقدمها فى الزراعة وكان الملك مسؤولا عن فصول السنة ويعتقدون أنه قادر على منح المطر ومنعه لانه كان في الوقت نفسه كاهناً وهب قوة الصوت ونفوذه السحري

وأقدم دليل على ذلك نشيد النيل وهو أشبه بغناء سحري الاستسقاء . وقد لاحظ الناس الذين ابتدأوا بعمار هذا القطر عدة ظواهر للنيل اذ يرون أمامهم نهراً يجهلون منبعه ويظنون انه يخرج من حفرتين لايعلم لهما قرار بين جزيرتي (الفيلة وايليفانتين) . يتغير لون هذا النهر عدة مرات فى السنة . فحينما تحترق الزروع من الرياح الحارة برمال الصحارى فى شهر يونيه يكون لونه أزرق رائقاً . ووقتما يزيد ويحمل بقايا النباتات المتخلفة من مستنقعات بحر الغزال يخضر لونه (ويعتقدون ان هذا الماء الاخضر هو عبرات المعبودة ايزيس تبكي قرينها) ثم يستمر في الزيادة ويتلون ماؤه بالحمرة كانه دم قانىء فيغمر الشواطي. ويترك فيها قبل أن يبارحها مقداراً عظيما من الطمي يخصبها ويجدد قواها

تدل ترجمة المسيو (ماسبيرو) لنشيد النيل ان هذا النشيد مثال من النظم الشائق المختلط بالعزائم السحرية . ونذكر فقرته العاشرة لنقف على نموذج من أغانيهم

الفقرة العاشرة لنشيد النيل — يرتفع لاجلك نشيد الاعياد موقعاً على (الهارب) ومسنداً بالايدي — يحبذك فتيانك وأطفالك — يعدون لك صفوف أولادهم الطويلة — أنت أفخم زينة للارض — أجعل سفينتك تتقدم أمام أعين الناس — امنح الحبالي قوة عظيمة — أحبب نمو قطعان أنعامك

الاغاني السحرية والحب

كان للفتنة فن شهي يعد من العلوم القديمة وهو مؤسس على أصول وقواعد واضحة قبل أن يصبح أمراً متداولا لاهواء زينة الحياة والابتداع الانساني

لم يكن هذا العلم مستعملا لمحض الزينة بل كان يرمي لغرض حقيقي . وهو على نوعين أحدهما موسيقى والثاني كلام موزون . ولكن هذا الشكل الاخير صادر من الاول . وما الشعر فى الحقيقة الا موسيقى يهوزها جزء من أصولها

وقد ترجم المسيو (ماسبيرو) أغانى للحب وجدت فى البردى المحفوظ في (تورينو) بايطاليا و (هاريس) بانجلترا وهي أشبه بنشيد الانشاد (باب فى التوراة) والبعض منها أشبه بعزائم سحرية . والمثال الاتي يدلنا على شكلها :

« أيها الحبيب الجميل ! منای ان أهيمن على محاسنك وشيمك بما لي من نفوذ الحيلة بان تتريض سويا كما تريد وتهوى وأنت ممسك بذراعي لاذكر وقتئذ توسلاتي لفؤادى الذى أصبح مندمجاً فى احشائك . ان غاب عني حبيبي طول ليلي ولم يأت أكون بمثابة من ووريت فى لحدها ! ألم تكن أنت الصحة والحياة ؟ أنت الذى تنعش بالصحة والمسرات فؤادى الذى ينشدك؟ (كثيراً ما يصادف المسيو ماسبيرو عقبات في الترجمة ككلمات باللسان الهيراطيقي المكتوب بعضه باحرف يونانية

قديمة أو محو في الكتابة أو تمزيق في البردى يذهب ببعض الكلمات وغير ذلك مما يجعل الترجمة في بعض الاحيان غامضة)

اغانى الحب عند هنود أمريكا

يشعر هنود أمريكا المتوحشون بنفس عواطف المتمدينين فيعبرون عنها تعبيراً ناقصاً لكنه مناسب قليلا وانا ذاكرون بعضاً منها لقبائل (أوماها) .

يقتصر الهندى على مقابلة أقارب أمه وأبيه ونفر قليل غيرهم . وحيث ان زواج أقارب الابوين محرم عندهم فالبنت لا يسعدها الحظ بالعثور على زوج ممن حولها . فيلزم اذن ان ترتبط علاقات الحب سراً بطرق غريبة خارجة عن دائرة الاسرة .

وحينما يصادف الشاب فتاة وهي ذاهبة لطلب الماء يراقب رجوعها ليعرف خيمتها ويتربص في مكان غير بعيد ليتسنى للفتاة أن تسمع غناءه ليلفتها اليه ويحوز اعجابها

تسمع الفتاة الصوت دون أن ترى المغني وتجهد نفسها في معرفة صاحبه وتقول: « من المغني ؟ » وهذا السؤال هو نتيجة اللحن وفائدته . يعقب ذلك مناجاة الحبيبين مدة ليست بالقصيرة وينتهي الامر باختطاف أو زواج أو مغازلة طويلة

وتدل بعض أغانيهم على شكوى الفتاة من بعد حبيبها الذي لا تفكر الا فيه وتود أن يكون قريباً منها

والغناء الآتى الصادر من هندى اميركي الى حبيبته يدل على النفوذ السحرى للصوت متحداً مع تأثير سحري لشيء مادى

« اصيخي الى صوت مزماري ياعين الحمامة (اسم الفتاة) — اصغي الى الحاني فهذا صوتى — لا تدعي للاحمرار اليك سبيلا فاني عالم بافكارك — انني احمل مجنى السحرى فلا تستطيعين الفرار — انني أجذب فؤادك الي ولو كنت فى جزيرة بعيدة عما وراء البحيرات العظيمة . . . لا تهربى منى فاذهب في طلبك ولو الى السحاب ـ معالجتي عظيمة وهي طوع بنانى اذ بها أجذب انما سواء اكان في الارض أوفي السماء ـ الروح الاعظم خاضع لامري يا خطيبتي »

لم وجدت العزائم السحرية للحب

نريد أن نبين بعض مسائل عامة تساعدنا على فهم استعمال آخر للعزائم السحرية في أعمال العواطف

اعتاد القدماء أن يعتقدوا أن جميع الظاهرات والحوادث مهما كان نوعها من أعمال أرواح خفية . والحب معدود أيضاً ضمن دائرة نفوذ هذه الارواح . وكان الذين يصبحون هدفاً لسهام الحب يشعرون بتأثر قوى أو عنيف يداهمهم على حين غفلة ويغير حالتهم الخلقية . فالانسان الذي يحس لاول وهلة بهذا التحول المبهم الذي يحدث له اضطرابا ويعكر صفوه يظن نفسه مملوكا لغيره وانه أصبح تحت مشيئة روح استحوذ عليه

كانت العواطف التى يشعر بها هؤلاء المحبون شديدة معروفة بين الناس وقد بلغ منهم ان صوروا هذه الارواح وجعلوا منها آلهة شديدي الحول والقوة نخشى جانبهم وانشأوا لهم القصص الخرافية وجعلوا لها مكانا رفيعا في (الميتولوجيا)

كانوا يعدون الحب قوة لا تغالب تسيطر على الانسان وجميع الكائنات الحية سواء اكانت في البر أو في البحر فتقربها وتجمع بينها . وقد فخم الفلاسفة والشعراء الاقدمون الحب وأظهروا قوته التي لاتقهر مثل افلاطون و (اوريبيد)

قد علمنا ان العزائم السحرية لها نفوذ عظيم على القوى الغير مرئية المختفية حول الانسان والمستترة في الظاهرات الطبيعية . وحيث يوجد روح للحب صار بعد آله فالعزائم والصلوات المرتلة والشعر المعبر عن العواطف دور مهم في علاقات الانسان مع هذا الروح أو الاله القوى

وقد عد القدماء الحب المبرح من الآلام وحينما تكون العواطف شديدة غير منتظمة ولا خاضعة لمراقبة العقل أو الضمير يحدث في الحياة الباطنة اضطراب أشبه بعواصف الحياة الظاهرة وينتج عوارض مرضية تختص دراستها بالاطباء كاضطراب التنفس والدورة الدموية واختلال نظام الاعضاء

وكان عندهم عزائم خاصة بشفاء الامراض وتسكين غضب أرواح الحب .

وأعظم دليل لاثبات ماذكرناه فقرتان من صفوة ماتركه لنا الاقدمون من رائع البلاغة وساحر البيان ألا وهي رواية (ايبوليت) التي رفعت شأن مؤلفها الشاعر اليوناني القديم (اوربيد)

نشيد — فتيت (فيدر) على فراش الآلام واعتكفت فى قصرها مختمرة بخمار شفوف يستر منها راسا ازدان بشعرها العسجدي مر عليها ثلاثة أيام لم تذق فيها طعاماً . أصيبت بألم خفى فأرادت أن تجمل لحظها المنكود حداً

أيتها المرأة الرافلة فى برد شبابها ! ان أحد الآلهة يطاردك وربما كان (بان أوهيكات أو كوربيانت أو سيبيل) الضال في الجبال وهو غائب الرشد

ليت شعري هل أصابك ماأصابك من جراء اهانتك لارطميس (الهة الصيد) أو خطأ ارتكبته في اتمام شعائر القربان ؟ انها تطوف بأطراف الارض وتخوض البحار فلا يفلت أحد من ملكها

نشيد آخر — أمور يااله الحب ! أنت الذي يسكب من عينيه سم الرغائب والملذات في القلوب التى تطاردها . لاتكن لي معاديا ولا تجعلني هدفا لسهام غضبك . ليست النيران الملتهمة ولا الحراب التي ترميها الكواكب بأشد هولا وازعاجا من حراب الزهرة (ربة الحب) التي تقذفها أيدي (أمور) ابن (جوبيتير) عبثا يضحي اليونان مئات الثيران (لجوبيتير) على شواطيء (الفيه)و(لابلون) في محارب دلف

ان كنا نهمل عبادة (امور) الظالم الغشوم حارس ملذات (الزهرة) والمتسبب في فناء من كتب عليهم الموت فليهوبهم حينما ينقض عليهم الى دركات المصائب والاحن

الاغاني السحرية والطب

مداواة لدغ الثعابين بواسطتها

ان أقدم أثر يعتمد عليه تاريخ الموسيقى هو الكتابات المنقوشة على هرم مصري بسقارة أنشيء قبل الميلاد بآلاف من السنين

يحتوي هذا الهرم على رمس الملك (أوناس) آخر ملوك الاسرة الخامسة وقد اكتشفه المسيو (ماسبيرو) في شهر فبراير سنة ١٨٨١

ان الغرفة المودع بها تابوت هـذا الملك مغطاة حيطانها بصيغ معظمها سحرية والبعض منها دينية بفضلها يكون الميت آمناً مطمئناً ويستطيع أن يتم ما قدر له من الحياة الجديدة

يرى المتأمل في هذه الكتابات انها بليغة وأسلوبها أشبه بالقصائد ولكنها لم تعمل للسماع ولا للجمهور بل هي مركبة من صيغ تعمل وحدها من نفسها بما لها من الخواص والتأثيرات

لننظر في قطعة من هذه الصيغ دون ان نشتغل بالآثار الموسيقية التي يتسنى لنا استنباطها منها . وهي تدل على ما يتمنونه وينتظرونه للملك (أوناس) ومضمونها انه لم يمت اذ يقرأ منها هذه الجملة : « أيها الملك أوناس! يد شخصك الثاني أمامك يد شخصك الثاني خلفك . رجل شخصك الثاني أمامك . رجل شخصك الثاني خلفك ... انك موجود . صولجانك (آب) بيدك . انك تصدر أوامرك للاحياء. ومن تواروا في مساكنهم الخفية ... انك تطهر بماء الكواكب الزلال ثم تنزل على حبال من حديد ... تحبذك الارواح النورانية الخ ثم يمر ذكر عدة آلهة ويقول لكل منهم اذا كان وجودك حقاً ليس يوهم فكذلك وجود (أوناس) أمر حقيقي « اذا كان ابنك (هور) حياً (فاوناس) مثله الخ ... تفتح أبواب الافق وتهشم مزاليجها . هاهو مقبل نحوك يا (نيت) قد أمك يا (توازيريت) الخ .

نجد من مميزات هذه العزائم انها أشبه بدفاع للموت والفناء تلبسه روح بليغة

من الشعر ولكنها في الحقيقة مخالفة للشعر من بعض الوجوه لانها لم تعمل لتلفت اليها أحداً حتى الميت نفسه اذ تخاطب بها بعض الاحيان الآلهة وهي مختفية طي حصن حصين ولا قيمة لها الا أنها ظاهرة يعتبر مفعولها غير خاضع لاي ارادة انسانية وهذا هو خاصية السحر

وقد بين المسيو (ماسبيرو) ان هذه الكتابات مركبة من آيات وكل جملة منها تشمل الانواع الآتية :١—دعاء—٢— صيغة تسد مسد عمل حقيقي — ٣ — تتمة لهذه الصيغة

لم يقتصر الملك (اوناس) بعد موته على ان أصبح متمتعاً بحياة جديدة بل صار اله ولذلك وجب أن يزود وتقدم له الهدايا والكتابة تدل دلالة صريحة على كيفية تقديم الهدايا من فطير ولبن وزبد وجعة سوداء مصحوبة بالعزائم التي كانت تعمل معها وكذلك العطور والبخور الذي يحرق عند الحاجة مع بيان الاشارات التي كانت تعمل وقتئذ

وأهم ملاحظة تلفت النظر في غرفة الملك (أوناس) هي السطور المنقوشة فوق تابوته وهي حاوية لصيغ سحرية تصلح لوقاية الميت من لدغ الثعابين التي تعترضه في رحلته الى الاله (أوزيريس) حامي الموتى

يعتقد قدماء المصريين ان الحياة الآخرة أشبه بالحياة الدنيا معمورة بنفس حيواناتها وهوامها فيستعملون الموتى ذات الصيغ التي كانوا يستعملونها لوقاية احيائهم من لدغ الثعابين وينقشونها فوق توابيتهم

الامراض عند العائشين على الفطرة

زار سائح في أوائل القرن التاسع عشر جزائر المحيط الاعظم فقال عنهم: «انهم يعتقدون ان الموت هو الذى يحصل من اصابة تسبب الوفاة كموت الحروب»

ليست الفكرة القائلة بان الموت من قوانين الحياة معروفة عند القدماء لان الانسان حسب عقيدتهم لو مزقته الضواري اربا اربا أو اخترمت جسمه السهام فلا يكون ذلك شيئاً غريباً أو خفياً لان سببه ظاهر للعيان. ولكنهم يعدون الموت

من العلل والآفات أمراً من خوارق العادات ويعزونه الى الارواح الشريرة . فان شكا أحد من صداع أومرض فى الامعاء أو غيره قالوا قد لبسه جني . فمداواة هؤلاء المرضى ليست الا طرد هذه الارواح المتسلطة عليهم

يبدأون بمداواة مرضاهم بالعزائم السحرية ثم يصحبونها بالعمليات الجراحية والمعالجات الطبية الاولية وهم معتقدون ان الفضل في تأثيرها راجع الى الاغانى السحرية

حينما يدعى الكاهن الوثني فى الكونغو لطرد روح خبيث استحوذ على زنجي يقيم للمريض حفلة غناء ورقص أمام كوخه وتمكث يومين فيهرع اليها الناس من كل فج عميق ليشاهدوا الساحر الذي يسمونه بلغتهم (ما كنجا) . يعزف العازفون بالانهم الموسيقية ويغنى الحاضرون أناشيد تصحب الموسيقى ولا يترنم الساحر الا بمطلع النشيد ويستمر كل دور نحو ساعتين فلا ينتهي الا حينما تنفد قوى الراقص الذي يمثل فى رقصه الحروب فتراه محمر العينين كانه مل من شدة الوغي . بيده رمح يمثل به هجوم ودفاع خصمين وينتهي الامر بان يتخيل انه ظفر بعدوه فينشد أناشيد النصر . وتكون الموسيقى وقت هذه الحرب التمثيلية بطيئة أوسريعة على نغمة واحدة أو متنوعة وذلك وفق حركات الراقص الممثل

والطريقة المتبعة لغاية يومنا هذا عند الاسكيمو هي المعالجة بالعزائم السحرية

الاغانى السحرية والطب عند البرونزيين

انشأ أحد الهنود الرحالين المسمى (هوفمان) رحلة يدور بحثه فيها على غرائب قبيلة (أوجيباوا) وهي من أشهر القبائل الهندية المنتشرة بين مقاطعتى (أونتاريو وريد ريفير اوف ذي نورث) وقد صور صورة تمثل رجلا من الذين يعالجون بواسطة الاعشاب متربعا فى كوخه يجهز خليطا من الاعشاب يحركه بيمناه فى مرجل واليسرى ممسكة شيئاً أشبه باللعبة التى تحدث صوتاً من لسانها المعترض أمام أسنان ترسها

يغني هذا الرجل وهو يحضر دواءه معتقداً أن الغناء يصير طعم هذه العقاقير رديئاً فيستبشعه الشيطان المستحوذ على المريض

بين هؤلاء الهنود جماعة تسمى (مديووين) (ولعلها محرفة من كلمة مداوين جمع مداو) ويسميهم السياح (الجماعة الكبرى الطبية) تتركب هذه الفئة من (الشامنس) وهم فى الوقت نفسه أطباء يعالجون بالسحر وكهنة وعرافون وأنبياء وأساتذة للموسيقى

وهذه الجماعة مجهولة الاصل وهي في حماية الآلهة ورعايتهم . ولا تعهد الاسرار للمريد الحديث إلا شيئاً فشيئاً

ليس الهندي المعدود عندهم كفؤاً لشفاء المريض قاصراً على مهنة المعالجة بالاعشاب بل هو مغن ذو صوت حائز لنفوذ عظيم . اقر باذنيه تابع لموسيقاه بل يستخرج خواصه الفعالة من الموسيقى

وحينما يتعلم التلميذ الجديد التعاليم الاولية يلقنه أستاذه بعض أغان وأناشيد تكون اتجارته أول مورد للارتزاق وهذه الاغاني مؤثرة لحد معلوم . ولا يقتصر التلميذ على بعض أغان محفوظة بل يتدرب على انشاء أناشيده الخاصة

وقد ذكرت ميس (فليتشر) فى ابحاثها في موسيقى قبيلة (أوماها) الاغانى الطبية وجعلت لها قسما خاصاً فقالت : « الاغاني الخاصة بمعرفة استعمال بعض الجذور أو الاعشاب الطبية تنشد عند البحث عنها وجمعها وتحضيرها ويباح لجميع الناس سمعها ولكن لا يستطيع أحد أن يستعملها غير صاحبها لانها ملك وحق خاص يحترمه الكبار والصغار وهو بمثابة الصيادلة في عصرنا هذا كل منهم يملك مخترعاته ولا يجوز لغيرهم تقليدها

تأثير الموسيقى فى الحيوان

للموسيقي تأثير عظيم في الحيوان فتراها تارة تشجعه كالابل ان أعياها السير من التعب أو الغيظ أو الجوع حداها السائق بشجي الحداء فتطرب وتنسى النصب وتداوم سيرها بنشاط وحمية . والحداء أمر معروف بين العرب لايخلو منه قول شاعر

ونشاهد ان بعض الحيوانات كالخيل والحمير والابل تكون بعض الاحيان مستنفرة غير مطمئنة حينما ترد الماء فلا يهدأ روعها وتطمئن حتى يصفر لها راعيها فتشرب وهي آمنة

وأغرب من هذا وذاك تأثير الموسيقى فى الثعابين والافاعي هذه الهوام الخبيثة التي جبلت على الشر والاذى والمثال الآتي يرينا أن للموسيقى وحدها دون أن تستعين بالسحر نفوذاً عظيما على هذه الهوام. ترى الهندي يعزف بالحان خاصة فتهرع اليه الثعابين من جحورها وتقف بين يديه ذليلة صاغرة وديعة متجردة من ميولها الخبيثة فيأخذها الطرب وتلعب وترقص على نغمة مزماره

روى الرحالة (روسليه) ماشاهده في الهند من استحضار الثعابين وترقيصها فقال: حينما كنا في الهند دعانا اثنان من السحرة المشتغلين باستخراج الثعابين والاتجار بها وقدما لنا بعضاً منها ومن أندرها نوع يسمى (جولابي) أو ثعبان الورد لان ثوبه منقوش باللون المرجاني ونوعا آخر يشبه رأسه ذنبه حتى يصعب التمييز بينهما. رددت ناظري في الثعابين فلم أجد بينهما النوع المسمى (كوبرا كابلاو) فقلت لهما: «الفائدة من جميع هذه الانواع اذا لم يكن فيها (الكوبرا) الذي نريده» فأجابا: «ان هذا النوع نجده بسهولة بل نستطيع أن نعثر عليه في فناء داركم»

أخذني العجب ولم أصدق انهما يعثران عليه في وقت قصير. فقام أحدهما وتجرد من ثيابه ولم يترك إلا سرواله وأخذ المزمار المعروف عندهم باسم (تومربل) وهو خاص بالثعابين ودعاني لاقتفائه فذهبنا خلف البيت الى خلاء مغطى بالحجارة والعوسج وأخذ يعزف بمزماره فينبعث منه أصوات حادة يتخللها تنويعات في الصوت ألطف من التي ابتدأ بها وما هي إلا هنيهة حتى أشار الي أن أنظر الى نقطة عينها فرأيت ثعباناً مطلا برأسه من جحره أسفل حجر فرمى الرجل مزماره وانقض عليه كالبرق وقذف به فى الهواء ثم أمسك بذنبه حينما وقع على الارض وبعد فحصه وجده حية غير سامة فعاد الى عزفه وما هي إلا لحظة كلمح البصر حتى

شاهدنا ثعباناً يثب فى الهواء ثم وقع على الارض فهجم عليه الرجل وأمسك به فاذا هو من النوع الذي أنشده أسود هائل يربو طوله على متر . طفق الثعبان يختبط ويحاول الافلات فأسرع الرجل وأمسك به من خلف رأسه وفتح فمه وأرانا أنيابا حداداً يقطر منها الموت الزؤام فتحققنا صدق عمله لان معظم هذه الفئة يستخدمون الثعابين بعد تجريدها من أنيابها وعند مايكلفهم أحد باستخراج ثعبان يطلق أحدهما خفية ويوهم الناس انه استخرجه من المكان المرغوب ثم اخذ الرجل يخلع انياب الثعبان لمنعه من الاذى وقد فاجأه اثناء عمله بلدغة في اصبعه فسال الدم منه وأسرع يمتصه بفمه بقوة ثم وضع عليه حجراً صغير اسود مخرما وقدمه لي أخيراً قائلا انه دواء ناجع للدغ (الكوبرا) فاشتريته منه وبعد تحليله وجدته قطعة من العظم مكلسة رقيقة الانسجة

وبعد هذا الصيد انشأ الهنديان يرياننا من أنواع ألعاب الثعابين ما أدهشنا ففحناهما بريبتين بعد ماقضينا أكثر من ساعتين فى الصيد والالعاب فكان هذا العطاء الحقير أجراً عظيما لهما وخرجنا لاهجين بالشكر والثناء

الموسيقى والتربية

اذا كان الغناء كفؤاً للتسلط على الجن وتسكين غضبها وطرد الشياطين والتنبؤ بالمصائب أو منعها فيكون من باب أولى أهلا لان يؤثر فى قلوب الناس ويهيمن نفوذه النافع على عقول الامة أو شبانها ومبلغ القول انه يكون خير وسيلة يستعملها الحاكم أو المهذب للتربية

وقد قال الكتاب القدماء ان العادة التي كانت متبعة عند الفرس أن يعهد بالامراء وهم في الرابعة عشرة الى أساتذة اكفاء ويختص كل واحد منهم ثلاثة مهذبين ممن كملت أخلاقهم وآدابهم ويكون أحدهم قاصراً على تعليم سحر (زوروانستر)

فهل كان هذا السحر موسيقياً ؟ اننا لانستطيع أن نجيب على هذا السؤال بالضبط ولكننا نقدر ان نصل بالاستدلال الى ما يقربنا من الحقيقة

وقد روى المؤرخ الصيني الشهير (سيماتسيين) : « ان ملوك الصين الاقدمين حينما سنوا قوانينهم الخاصة بالسحر والموسيقى لم يقصدوا منها تشنيف الاسماع ومسرة العيون بل أرادوا أن يعلموا الشعب ان يكون عادلا فى حبه وبغضه وان يهدوه الى الصراط المستقيم . ولما رتبوا الموسيقى جعلوا ضمن مبادئها تلطيف الاخلاق الانسانية » فمن الموسيقى ما يريح النفوس ومنها ما يحثها على الخير وترى فى الحفلات الموسيقية سواء أكانت عامة أو خاصة ان الموسيقى تحدث فى القلوب احتراما وطاعة وحبا اذ تصير الناس طائعين لشجي الالحان والانغام

تجد فى الكتاب الصيني القديم المسمى (يوكي) ترجمة المسيو (شافان) العبارة الاتية : « ولما كانت الموسيقى تؤثر في اعماق النفوس وتحدث تغيراً في الطباع وتحولا في العادات فلذلك اتخذها الملوك الاقدمون وسيلة للتربية »

وقد رأى جميع المفكرين حتى من عهد فيثاغورس أن الموسيقى من انجع الطرق للتربية . وقال افلاطون : «ان أعظم فن مهذب هو الذي ينفذ الى النفوس بواسطة الانغام فيهيئها للفضيلة وقد أطلق عليه اسم الموسيقى» وقال أيضا : «جميع حياتنا محتاجة الى النظام والانسجام» ومن هذا نعلم التأثير الطيب النافع للموسيقي . وقال (اريستوكسين) الفيلسوف والموسيقى اليوناني القديم : « لقد أصاب قدماء اليونان في كونهم أعاروا كل اهتمامهم للتهذيب بالموسيقى لانهم استحسنوا ان يهذبوا نفوس الاطفال بواسطة الموسيقى لتنقاد الى الجمال والشرف»

ان هذه الفكر لاتستغرب لانها نتيجة طبيعية معقولة للاعتقاد بان الموسيقى قوة فتانة ساحرة. واذا كان الغناء يؤثر فى آلهتهم فكيف لايؤثر في نفوس الاطفال؟

يسمح لنا السحر ان نفسر مسألة غريبة نمس ما كانوا يسمونه في مادة التربية التهذيب الراقي وفيه الكفاية لاقناعنا باننا نكون مخطئين ان ظننا ان الفن كان في منشأ امره من دواعي الزينة

يدهش كل من كان مولعاً بالموسيقى مداوما على سماعها حينما يعلم انها كانت معدودة ضمن العلوم الاربعة العالية عند القدماء وهي الحساب والهندسة والفلك والموسيقى . فماذا كان يعمل هذا الفن الرقيق الذي ملىء بالمحاسن والحرية وسط هذه العلوم ؟ يخيل الى المصرى ان هذا التوفيق به تناقض وتنافر عظيم

ما كان الساحر القديم الفطري ليعمل في اركان بيته بل كان يعمل في الخلاء امام الطبيعة ويستعين بالعالم المادي وجميع الكائنات الحية والكواكب فكان في الوقت نفسه طبيعيا كيماويا فلكيا

اختم الآن بهذا الباب حلقة ابحاثي مؤقتا وربما عدت اليها فيما بعد ان صادفت ابحاثا جديدة يكتشفها احد العلماء الغربيين المعاصرين ولدى الآن شيء كبير مما يتعلق بالموسيقى من الوجهة الفلسفية ولكنه مشحون بالمواد الفنية مما يجعله غير مفهوم بالمرة الا لمن له المام بفن الموسيقى الغربية ويسمع شيئا كثيراً من مختلف المؤلفات القديمة والحديثة ليفهم ما يسرد منها للاستشهاد . وقد توخيت في عملي أن لا أنشر الا الابواب التي لا يشوبها شيء من المواد الفنية لتكون سهلة التناول والادراك لكل قاريء سواء كان مشتغلا بالفن او غير مشتغل به لتكون الفائدة أجزل وأعم .

الشرف

لو أنعمنا النظر فى جميع مكارم الاخلاق لوجدنا الشرف أفضلها بل جماعها ولا نكون مغالين ان قلنا انه هو السبيل الوحيد لسعادة الدارين فلو كنا جميعاً شرفاء بالمعنى الصحيح لاصبحنا في مصاف الملائكة الأبرار نرتع في جنة أرضية لا نعرف للشقاء معنى ولا للشرور لفظاً

الشرف هو شعور تحدثه عزة النفس والرغبة في اعتبار الغير وهو الذي يحرضنا على القيام بأشرف الاعمال وأصدقها

وللشرف ثلاثة فروض يقضي الاول منها بحفظ كرامة المرء وعزة نفسه والثاني بان يحب للغير ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لها والثالث بطاعة الخالق وأداء فروض العبودية

وقصارى القول اننا لو بحثنا في معجم الشرف لوجدنا انه هو والعدل والخير والمروءة والكرم والاخلاص والتقوى مترادفات

وان وجدت تلك الشروط جمعاء في فلاح حافى القدمين مرتد جلباباً أزرق فهو أشرف ممن جمع الاموال والالقاب وتجرد من معنى الشرف ولعمري ان من يحتقر الاول ويحترم الثانى لأحط من الحيوان الضار

لم يحرم الله علينا السعي وراء المنافع والملذات ولكن هناك غرض أرقى وهو الخير أو العدل أو الشرف

خلق الانسان من نفس وجسم فالاولى عالية رفيعة والثاني سافل منحط

وللجسم عوامل محرضة على التدهور الى مصاف المجماوات كالحواس والشهوات والالهام فان لم تتغلب النفس على هذه العوامل كان الانسان في عداد الانعام وفقد كل معنى للشرف

وقد عبر افلاطون عن هذه الفكرة أحسن تعبير اذ قال في « فيدر »

« نفس الانسان أشبه بجوادين يجران عجلة حوذيها العقل . أحدهما من كرام الخيل والآخر نقيضه وقد تجمعت فيه العيوب والنقائص . فترى الاول جميل المنظر متناسب الاعضاء مرتفع الرأس بعرنينه انحناء قليل . ابيض اللون اسود العينين يحب المجد برزانة واعتدال ويلبي نداء حوذيه واشارته دون ان يضرب

والثاني غليظ الاعضاء معوجها كبير الرأس قصير العنق افطس الانف اسود اللون أخضر العينين مشربهما بالحمرة ولا يميل لغير الاعجاب والنفور والهياج . أذناه مغطيتان بشعر كثيف لا تسمعان نداء السائق ولا يطيع هذا الصعب الا اذا ألهبه السوط ووخزته الابر

وهذا الجواد الرديء هو صورة للجزء الاول من النفس أي أصل الاحساس والرغبة والخوف والغضب الاعمى والحب الدنيء السافل الذي يجرأ على كل شيء ويفسد كل من صادفه

والجواد الآخر هو الشجاعة أي أصل الغضب الشريف والعواطف النبيلة والحب الطاهر والحماسة

واما السائق فهو العقل وهو القوة المميزة التي نعرف بها من الاشياء ما كان حقاً خالصاً دائماً . وهو يصعد الى الخالق نفسه أي علة العلل »

ان الانسانية لأشبه بجمع عظيم من المجرمين وكل من يلقي نظرة الى ما يظهر منهم يهلع فؤاده ويتقهقر من الفزع اذ كلما عرف الانسان الانسان كلما كبرت الهاوية في عينيه ولا يشاهد المرء الا منظراً رهيباً حيثما ردد طرفه . لان الانسان أينما سار يترك أثره ويا له من أثر مزعج مرعب

انقاد الانسان لامارته بالسوء واستبشع الحلال وهو هنيء واستمرأ الحرام وهو غاص قاتل واستحل الشرور ارضاء لرغائبه وشهواته حتى أصبح كالنمر يلهو بسفك الدماء فيفترس ولو كان بشما وباع شرفه وقدره واعتباره فأصبح ممقوتاً كالوحش الضارى

ان الانفة هي مدار الشرف فان اعوزت الانسان اعوزه الشرف مهما حاول فلنبثها في عقول أطفالنا حتى تنمو معهم وتجري فى عروقهم ولنعدل عن فكرة الارهاب أو الترغيب فى الجزاء حيما يبلغون السادسة فانها عقيمة ضارة لا تهذب النفوس ولا تقوم الاخلاق

ابن السعادة

السعادة عقدة العقد وكبرى المعضلات التي ضل في تيهها الفلاسفة والحكماء والشعراء فتشعبت فيها أفكارهم وتضاربت آراؤهم

لا تخش أيها القارىء أن أضايقك بسرد أقوال أفلاطون وارسطو وغيرهما من فلاسفة اليونان الاقدمين وشرحها وتحليلها أو البحث في آراء المتأخرين من حكماء الغربيين

دعنا من الفلسفة ونظرياتها والمنطق وقضاياه واصبر الى النهاية ولا تسأم حتى أسمعك ماعلمتنيه الايام والليالي فلربما كان أصدق من خواطر الخيال وأقرب منالا وأسهل تحققاً

ظن البعض ان السعادة في كثرة الاموال والاولاد والحرث والقصور الشامخات والخيل المطهمة والجوارى والغلمان فتكالبوا على جمع المال ولو بأخس الطرق وأدنى الوسائل فأماتت حب المال ضمائرهم وجعلهم غلاظ القلوب والاكباد فلم يجدوا لهم ضميراً يحاسبهم أو وازعا من الدين يزجرهم حتى أصبحوا مكروهين ممقوتين عند الله والناس

نرى كثيراً من الناس لايعرفون معنى الحياة وكيف يقضونها حتى بلغ من شدة عجزهم وضعف ارادتهم وسفاهة رأيهم انهم ينتحرون خوفا من الكد في سبيل الحياة فهم في الحقيقة أحط من أحقر الحشرات اذ نرى النمال متحدة متضامنة مجتهدة

في الحصول على اقواتها بهمة لاتعرف الملل فتقضي الربيع والصيف والخريف في ادخار القوت لتستريح في الشتاء وتستكن فى مساكنها . ومن نباهة النمال انها تقرض طرفى الحبة من القمح أو الشعير لئلا تنبت من رطوبة الارض

اج القصور الشائقة وأختبر أهلها تجد فيها ألوفا من مصائب متوارية وكروب خفية وآلام نفسانية ومتاعب جثمانية . ترى رب القصر وقد أوقعه التفاخر بمظاهر الغنى ومنافسته لجيرانه الاغنياء في هاوية الخراب والدمار وهذه عقيلته التي لم يحسن اختيارها تريه كل يوم من صنوف الرزايا والخراب ما يثقل كاهله وهؤلاء أولاده الاشقياء الذين لم يحسن تربيتهم يزيدون في آلامه ومتاعبه ، يكاد يقطع هذا المنكود سبابته من الحسرة والندامة قائلا : لو اقتنعت بما لدي من المال وأحسنت اختيار عقيلتي وربيت أولادي تربية طيبة لكنت الآن ناعم البال مرتاح الضمير

كل من فى الوجود من انسان وحيوان يكد ويعمل طلباً للسعادة. ترى الحيوان حينما تكمل قوته يصبو الى أليفة يسكن اليها فتراه ينسى الجوع والظمأ ويداوم البحث عنها وكثيراً ما يصادفه مزاحم عنيد فيشهر عليه حرباً عوانا ربما كانت عليه القاضية

نريد ان نستدل على طريق السعادة وحينما نجتازه نصل اليها ونعرفها حق المعرفة وهذه السبيل لها أربعة أبواب والسعادة وراء الباب الرابع . فمفتاح الاول بيد الاقدار وهو ان تولد سليما عن العاهات والآفات فربما كان أبواك سليمين قويين ويعاندك القضاء . والثاني بيد أبيك الذى بذر بذارك فان كان البذر جيداً والتربة خصبة سليمة نما غرسك وأينع ثمرك والثالث بيد أبيك أيضاً وهو التربية الصحيحة الراقية بجميع فروعها العلمية والدينية والاخلاقية والبدنية والرابع الحكمة ومفتاحها بيدك

أتدري ما هي السعادة الحقيقية التي ضلت في مفاوزها العقول ؟ انها لا توجد في وسط القصور الفخمة والجنان الفيحاء والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والكواعب الحسان ولا تألف هذا الوسط المضطرب وانما هي منزوية فى أعماق فؤادك ؟

السعادة أن تكون صحيح الجسم والعقل مهذباً عالماً متحلياً بمكارم الاخلاق نقياً طيباً قانعاً بما أوتيت صبوراً على الملمات مؤدياً ما يفرضه عليك الواجب نحو ربك ونفسك وأهلك ووطنك محبوبا عند الله والناس تحاسب ضميرك قبل نومك فتجد نفسك لاعليك ولا لك

آتاك الله ووالداك هذه السعادة والواجب يقضي ان تكلأها بعين عنايتك وتورثها لابنائك وتعاهدهم على أن يحذوا حذوك ويحافظوا عليها حتى يتوارثها عقبهم أبد الآباد ويرشدوا الناس الى مناهجها القويم

خير لشقي تعس منكود جنى على نفسه أو جنى عليه أبوه بمرض عضال ورثه منه أو أهمل تربيته حتى أصبح عالة على أمته ان لا ينقل شقاءه الى غيره ويتزوج ويجني هذا الاثم العظيم فان امتنع فتلك مروءة نادرة وطيبة عظيمة

أيها الشقي المسكين الذي جنى عليه أبوه وسدت في وجهه أبواب السعادة وحرمه طالعه المنكود من راحة الجسم وهناءة البال تدرع بصبر أيوب وفرج كروبك وبدد همومك بمواساة البائسين واغاثة الملهوفين وعيادة المرضى وبرهم بقدر ماتستطيع ولو بكلمة حلوة فان ذلك سعادة عظمى لا يفهمها إلا الكيس الحكيم وتعز في وحدتك بقول أبي العلاء

هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد